الإمام يوسف القرضاوي

في تفسير القرآن الكريم

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

obeikandl.com

محاضرات الإمام يوسف القرضاوي

في تفسير القرآن الكريم

الإمام يوسف القرضاوي

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة

٦٠ صفحة ١٤ × ٢٠سم

رقم الإيداع: ٢٠١١/٤١٩٩

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977-225-297-X

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف.

All rights reserved to The Auther And Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher And Auther.

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد

إدارة الشئون الفنية

القرضاوي. يوسف القرضاوي

في تفسير القرآن الكريم/

يوسف القرضاوي.-

القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١١

٦٠ ص؛ ١٤سم

تدمك X ٢٩٧ ٢٢٥ ٩٧٧

١- القرآن- تفسير

أ- العنوان.

٢٢٧

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت ٢٤٨٣٧٨٥١

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلِّمنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبع هداه .

(أما بعد)

فهذه إحدى المحاضرات التي ألقيتُها في (دار العلوم) بندوة العلماء في مدينة لكهنو بالهند ، حينما دُعيتُ من رئيس الندوة ، شيخنا العلاَّمة الإمام أبي الحسن على الحسني الندْوي ، لإلقاء عدد من المحاضرات ، على طلاَّب دار العلوم وأساتذتها ، في جوانب الدراسات الإسلامية المختلفة .

وقد اخترتُ أن تدور محاضراتي حول العلوم الإسلامية ، من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، ودعوة ، وأن أتوخَّى فيها السهولة وعدم التعقيد ، وأن أربطها بالعصر الذي نعيش فيه ، وقد سرَّني أن الجميع كانوا حريصين على شهودها ، شيوخا وطلبة ، وكان على رأس الحضور باستمرار شيخنا أبو الحسن رحمه الله .

وهـذه المحاضـرة حـول القـرآن وتفسـيره ، أوردتُ فيهـا أهـم القواعد والضوابط لمَن يريد أن يفهم القرآن فَهمـا صـحيحا ، كمـا حذَّرت من المزالق التي يقع فيهـا بعـض الـذين لا يلتزمـون بهـذه الضوابط .

وقد كنتُ أرتجل هذه المحاضرات على عـادتي ، دون اعتمـاد علـى أيٍّ ورق منِّـي ، وكـان بعـض الطـلاَّب سـجَّلوها علـى (الكاسيت) ، فكانت فرصة لمكتبي في الدوحة ، أن يفرِّغهـا علـى الورق ، لإعدادها للطباعة والنشر ، عسى أن ينفع الله بها بعض مَن يقرأها .

أسأل الله سبحانه أن ينفـع بهـا قائلـها ، ومسـجِّلها ، وطابعهـا ، وناشرها ، وقارئها ، ومَن أسهم فيها بنصـيب قـلَّ أو كثُـر . وآخـر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

الدوحة في ذي الحجة ١٤٣١هـ

الموافق نوفمبر ٢٠١٠م

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

obeikandl.com

في تفسير القرآن الكريم[1]

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأزكى صلوات الله وتسليماته على البشير النذير ، والسراج المنير ، مُعلِّم الناس الخير ، وهادي البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحقِّ ، ومُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا وإمامنا وأُسوتنا وحبيبنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه ، ومَن سار على دربه ، ودعا بدعوته ، واهتدى بسنَّته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

خير ما أحييكم به أيها الإخوة الأعزّة ، والأبناء الأحبة : تحيَّة الإسلام ، تحيَّة من عند الله مباركة طيِّبة ، وتحيَّة الإسلام السلام ، فالسلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته .

(وبعد)

من خصائص القرآن :

أتحدَّث إليكم اليوم عن موضوع خطير ، موضوع ذي شأن ، وذي بال ، لأنَّه يتعلَّق بالقرآن الكريم ، بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، حبل

---

(١) أُلقيت هذه المحاضرة بمكتبة الشبلي النعماني بدار العلوم بندوة العلماء بتاريخ ١٧/١٠/١٩٩٦م ، ضمن زيارة الشيخ لندوة العلماء .

obeikandi.com

الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، عُمدة المِلَّة ، وأساس العقيدة ، وينبوع الشريعة ، ورُوح الوجود الإسلامي كلَّه .

(١) كتاب مُبِين :

وقد خُصَّ هذا القرآن بعدَّة خصائص ، لا توجد في غيره ، فهو كتاب مُبِين مُيسَّر ، نقرأ في القرآن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (يوسف:١) ، وقوله : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (الزخرف:١،٢) و (الدخان:١،٢) ، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر:١) ، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل:١) ، ومعنى (مبين) : أنه بيِّن بنفسه ، مبين لغيره . وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤)، والنور مُنكشف في نفسه ، كاشف لغيره . فكيف إذا كان نورًا مبينا ؟ وقد وصفه تعالى بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل:٨٩) ، ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (الزخرف:١،٢) ، (الدخان:١،٢) ، ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (يوسف:١) ، (الشعراء:٢) ، (القصص:٢) ، ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر:١) ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (يس:٦٩) . ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴾ : أنه بيِّن بنفسه ، مبين لغيره .

(٢) كتاب مُيسَّر :

وهو كتاب مُيسَّر للذكر والحفظ والفَهم ، يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ (القمر:١٧) ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (مريم:٩٧) ، ويقول: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(الدخان:٥٨)، ولذلك لا تجد كتابا في الدنيا يحفظه الألوف ، وعشرات الألوف ، ومئات الألوف من الناس، غير القرآن الكريم.

هاتِ أعظم قَسٍّ من قُسُس اليهود أو النصارى ، أو أعظم كاردينال أو بابا ، واسأله هل يحفظ الكتاب المقدَّس ، أو يحفظ نصفه ، أو حتى ربعه ، لا تجد هذا ؛ لأنَّ هذه الكتب لم تُيسَّر للحفظ والفَهم كما يُسِّر القرآن الكريم لذلك . القرآن يحفظه المسلمون : الصغار والكبار ، الرجال والنساء ، بل والعجم قبل العرب . لقد حفظتُ القرآن الكريم ـ ولله الحمد ـ وأنا دون العاشرة وجوَّدتُه[1] .

---

(١) كنتُ في الجماهيرية الليبية منذ زمن قريب ، فقالوا : قد أكملنا مليون حافظ للقرآن ، وبدأنا في المليون الثاني . وقد استبعدتُ ذلك في أول الأمر ، فأخبروني أنهم معروفون بالأسماء ، ولكلٍّ واحد منهم سجل ، ويأخذ مكافأة دورية من الدولة .

ومنذ سنين ذهبتُ إلى بنجلاديش ، فوجدتُ في إحدى المدارس العربية الإسلامية ، تلميذا عمره تسع سنوات يحفظ القرآن كما أُنزل ، امتحنتُه بنفسي فلم يُخطئ في حرف واحد ، وفي مصر وجدنا من عدَّة سنوات صبيانا في سنِّ السابعة ، يحفظون القرآن حفظا جيِّدا ، وأحدُهم جيء به إلى قطر ، وكرّمه وزير التربية والتعليم القطري . لا يوجد كتاب يحفظه مَن يحفظه بهذه الكثرة إلا القرآن الكريم .

وأعجب من هذا أنَّك تجد الرجل من الهند أو باكستان أو تركيا أو بورما أو نيجيريا ، يحفظ القرآن كلَّه كأنَّه آلة تسجيل ، امتحنتُ بعض هؤلاء بنفسي فلم يَخرم حرفا ، ولم يُسقط كلمة من القرآن ، إخواننا من الهنود والباكستانيين والبنجاليين امتحنتُهم في مسابقة حفظ القرآن في قطر ، وحينما أسألُ أحدَهم عن اسمه ، لا يعرف معنى كلمة : (ما اسمك؟) ، فهو لا يفهم العربية ، ومع هذا يحفظ القرآن الكريم كاملا ، وهو لا يفهم منه كلمة . فهل هناك كتاب في الدنيا مثل هذا الكتاب يحفظه مَن لا يفهمه؟ هذا كتاب عجيب .

فالقرآن من خصائصه أنَّه مُيسَّر للذكر والحفظ والفهم .

(٣) كتاب مُعجِز :

ومن خصائص هذا الكتاب العظيم : أنَّه كتاب مُعجِز ، بل هو المعجزة الكبرى ، والآية العظمى لمحمد ﷺ ، لم يتحدَّ محمدٌ

الناسَ إلا به ، رغم ما وقع على يديه عليه الصلاة والسلام من آيات كونيَّة ، ومعجزات حِسِّيَّة ، حفلت بها الكتب ، وامتلأت بها الصحاح والحسان من الأحاديث[1]، ولكن لم يتحدَّ إلا بالقرآن ، تحدّى العرب أن يأتوا بمثل القرآن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٣،٣٤) ، أو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (هود:١٣)، أو يأتوا بسورة مثله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(يونس:٣٨)، أو بسورة من مثله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) ، فغُلبوا وانقطعوا ، وحق قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

---

(١) مثل خروج الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل ، وحنين الجذع ، وتسبيح الحصى بين يديه ، وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة ، وتظليل الغمام عليه ، وانشقاق القمر ، وغيرها .

obeikandl.com

(٣) كتاب خالد :

ومن خصائص هذا القرآن : الخلود ، أنَّه كتاب خالد ، كتاب محفوظ ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) ، تولّى الله حفظه ، استحفظ الأمم السابقة كتبها فلم يحفظوها ، ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة:٤٤) ، ولكنَّه تبارك وتعالى هو الذي تولّى حفظه بنفسه ووعد بذلك ، وعدا مؤكّدا فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، ولذلك نحن نتلو القرآن كما كان يتلوه رسول الله ﷺ ، بغَنَّه ومَدِّه ، وحركاته وسكناته ، نقرؤه بالرسم العثماني ، كما كتبه المسلمون في عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه ، ولم يجرؤ أحد أن يُغيِّر الخطَّ العثماني ، بقي القرآن كما هو ، نقرؤه كما كُتب ، دخل عليه النقْط والشكْل فقط ، وبقي كما هو بالرسم العثماني ، وبقي كما هو نقرؤه كما كان يقرؤه الصحابة ، وكما كان يقرؤه النبي ﷺ ، لم يجرؤ أحد أن يزيد في هذا القرآن ، ولا أن ينقص منه .

هناك مئة وأربع عشرة سورة ، كلُّها بدأتْ بالبسملة : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، إلا سورة واحدة لم تبدأ بالبسملة ، هي سورة التوبة ، سورة براءة ، هل استطاع أحد أن يقول : لماذا لا نضع البسملة في هذه السورة كما وُضعتْ في السور الأخرى ؟ لم يستطع أحد أن يفعل ذلك ، لأنَّها هكذا وردتْ ، وهكذا ينبغي أن نحفظ هذا القرآن .

قرأ أحد الصبية في الكُتَّاب مرَّة قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، قرأها ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ ﴾ ﷺ ﴿ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾، فهاج عليه التلاميذ من يمينه ومن شماله، ونهروه وقالوا له: من أين جئتَ بجملة: (ﷺ) هذه؟! هي: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾. في القرآن نقرأ اسم النبي ﷺ كما هو، لا نصلِّي ولا نسلِّم، فلننظر كيف استنكر الصِبْية الصغار في الكُتَّاب الزيادة في القرآن، فهذا كتاب له خصائص لا توجد في غيره، وعلى هذا يجب أن نفهم هذا الكتاب ونُفسِّره، ولا أقصد بالتفسير التفسير الرسمي فقط، بمعنى أنَّنا نُفسِّر القرآن من الفاتحة إلى الناس، وإنَّما أقصد أن نفهمه، وهذا الفهم هو المشكلة في عصرنا.

مزالق في فهم القرآن وتفسيره:

هناك مزالق في فَهم القرآن وتفسيره، القرآن الذي هو أساس الأمة ومرجعها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء: ٥٩)، هذا القرآن الذي هو المرجع، الناس يريدون أن يجعلوه هو نفسه موضع اختلاف، فلا يبقى لنا حَكَم نحتكم إليه، ولا مرجع نُعوِّل عليه، والعِلمانيُّون واللادينيُّون والعصريُّون يريدون أن يتلاعبوا بالقرآن،

وهذه هي المشكلة ، هذه هي التي احتاجت إلى أن نضع المعالم والضوابط لحُسن فَهم هذا القرآن وتفسيره ، حتى لا يعبث العابثون بهذا القرآن العظيم ، وحتى لا يتلاعب المتلاعبون بأساس الملَّة وعمدة العقيدة والشريعة .

لهذا احتجنا إلى أن نُنبِّه إلى المزالق في فَهم القرآن وتفسيره ، هناك أناس من غير البيئة الإسلامية ـ للأسف ـ أقحموا أنفسهم على كتاب الله ، فأرادوا أن يثنوا عِنان الآيات ، ويَلووا أعناقها ، لتؤيِّد ما يذهبون إليه ، هذا ما رأيناه في كثير من الكُتَّاب العصريين .

إنَّ القرآن الكريم لا يفهمه إلا مَن تأهَّل لفهمه ، صحيح أن القرآن كتاب مبِين ، ولكنَّه أيضا كتاب مُعجِز ، ركَّز الله فيه من المعاني والمفاهيم والأحكام والأسرار والكنوز ، ما لا يطلع عليه إلا مَن آتاه الله البصيرة والحكمة والعلم ، فلا بد أن يتأهَّل لذلك .

(١) عدم التمكُّن من اللغة العربية :

وأول ما يتأهَّل به الذي يريد أن يفهم القرآن ويفسِّره ، معرفة اللغة العربية ، بل التعمُّق في اللغة العربية ، بحيث يصبح متذوِّقا لها ، كأنَّه واحد من العرب الأقدمين ، الذين قال قائلهم :

ولستُ بنحْويٍّ يَلُوك لسانه ... ولكن سليقيٌّ أقول فأُعرب

لا بدَّ أن يصل في فَهم اللغة العربية والتمكُّن منها إلى هذا الحد ، أمَّا الذي لا يعرف النحو ، ولا الصرف ولا البلاغة ، ولا مفردات اللغة ، كيف يستطيع أن يفسِّر القرآن؟! لا بدَّ لمَن يُفسِّر القرآن أن يكون على علم جيِّد باللغة العربية ، لغة القرآن .

فالزمخشري في تفسيره أنكر على مَن فسَّر قول الله : ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١)، بقوله : أنَّ الناس يُدعوْن يوم القيامة بأُمّهاتهم ، فجعل (الإمام) جمعا للأم ، مع أنَّ المعنى أنَّ كلَّ أُمَّة تُدعى بكتابها ونبيّها ، يا أمَّة النبي فلان ، يا أمَّة محمد ، يا أمَّة موسى ، أو يا أمَّة القرآن ، يا أمَّة التوراة ، وهكذا .

قال الزمخشري : (ومن بدع التفاسير : أن الإمام جمع أمٍّ ، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حقِّ عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا . وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحَّة لفظه ، أم بَهاءُ حكمته؟!)[1] .

كنتُ أتناقش مع بعض الإخوة في دلالة قول الله تعالى في سورة الواقعة : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩)، هل فيها دلالة على أنَّ المُصحف لا يَمسه مُحْدِث؟ قلتُ له : لا ، لا يوجد

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢٤٥٩) ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

في هذه الآية دليل . لأنَّ القاعدة : (أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور). وفي الآيات المذكورة هنا ، في سورة الواقعة ذُكر أمران ، ذكر القرآن الكريم ، وذكر الكتاب المكنون ، في قول الله تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٩).

فإلام يعود الضمير في قوله : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾؟ يحتمل أن يعود إلى الكتاب المكنون ، ويحتمل أن يعود إلى القرآن الكريم ، يُحتمل هذا ، ويُحتمل ذاك ، والأصل أن يكون الضمير في قوله : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ ، يعود إلى الكتاب المكنون ؛ لأنَّه أقرب مذكور . وهذا هو الصحيح في تفسير الآية ، لأنَّ معنى الآية ـ وقد نزلت في مكة قبل تشريع الأحكام ـ أنَّ القرآن محفوظ في لوح ، في أُمِّ الكتاب ، فهو كتاب مكنون محفوظ ، لا يمسه إلا المطهرون ، وهم الملائكة ، فلا تصل إليه الشياطين ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢).

يقول الفخر الرازي : (ما المراد من الكتاب؟ نقول فيه وجوه : الأول : وهو الأصح أنه اللوح المحفوظ ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢) . . .

وإذا كان الأصح أن المراد من الكتاب اللوح المحفوظ ، فالصحيح أن الضمير في ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ للكتاب)[1].

لا بدَّ إذن لمَن يريد أن يفهم القرآن أن يتزوَّد باللغة العربية ، أن يكون متمكِّنا من اللغة .

وناقشتُ أيضا بعض الإخوة في قول الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ (التوبة:٣٦) ، قلتُ له : كلمة : ﴿ كَآفَّةً ﴾ هذه تُعرب حالا ؟ فهل تعرف صاحب هذه الحال؟ فلم يفهم كلامي . فقلتُ له : للحال صاحب ، وهنا يمكن أن تكون هذه الحال من المفعول به ، أو تكون من الفاعل[2]، فإن كانت الحال من الفاعل ، يكون المعنى : أيها المسلمون كافة قاتلوا المشركين . أيْ : تجمَّعوا على قتالهم كما يتجمَّعون على قتالكم .

وإن كانت الحال من المفعول به ، يكون المعنى : قاتلوا أنتم أيها المسلمون جميع المشركين ، فإن كانت الحال من الفاعل يكون لها معنى غير المعنى المتداول ، وهكذا .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١٩٢/٢٩ ، ١٩٣) ، الطبعة الأولى ، مصر .

(٢) انظر : تفسير النسفي (١١٠/٢) ، تحقيق مروان محمد ، طبعة دار النفائس ، بيروت ٢٠٠٥ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٧٨/٢) ، طبعة دار سحنون ، تونس ١٩٩٧م .

هناك أُناس يقولون : الخمر لم تُحرَّم في القرآن ؛ لأنَّها لم تأتِ بلفظ التحريم ، كما في قول الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ (المائدة:٣) ، وإنَّما قال الله في شأن الخمر : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٩٠)، فقال : ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ ، هكذا قالوا ، وهكذا فهموا .

فنقول ردًّا عليهم : كلمة : ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ هذه ، ليست كلمة هيِّنة ، بل إنَّ مَن أدرك معنى هذه الكلمة لوجد أنَّها أوكد في التحريم من كلمة التحريم نفسها ، لأنَّ معنى اجتنب الشيء : اجعل بينك وبينه جانبا . يعني ابتعد عنه . فهي تُشبه في النهي كلمة : ﴿ لَا تَقْرَبُوا ﴾ ، كالتي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (الأنعام:١٥١)، أو التي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ (الإسراء:٣٢)، فالله لم ينهَ في الآية عن الزنا فقط ، وإنما نهى عن القُرب منه ، وعن مقدِّماته . وكذلك كلمة : ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾، فالله لم ينهَ عن شرب الخمر فقط ، وإنَّما نهى عن الاقتراب من الخمر ، ولذلك لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها ، وشاربها وحاملها

والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها وآكل ثمنها ، والمشتري لها والمشتراة له[1]. كل هذا يدخل في معنى ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ .

تتبُّع موارد الكلمة في القرآن :

ولو تأمّل مَن يريد أن يُفسِّر القرآن الكريم ، وتَتَبَّع موارد الكلمة في كتاب الله ، وهذا أيضا أمر مهم ، لو تتبَّع موارد كلمة : (الاجتناب) هذه ، لوجدها وردت إمَّا مع الشرك والطاغوت ، وإمَّا مع الكبائر والفواحش ، كما في قول الله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (النساء:٣١) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(النحل:٣٦)، وقوله سبحانه: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ (الحج:٣٠) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾(الزمر:١٧)، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ (الشورى:٣٧)، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ (النجم:٣٢).

---

(١) رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٠٤١)، عن أنس .

وهكذا رأينا كلمة : (الاجتناب) لا تأتي إلا مع الشرك ، ومع الطاغوت ، ومع كبائر الإثم والفواحش ، هذا هو موقعها ، فلا تأتي هذه الكلمة مع صغائر الأمور ، فهؤلاء الذين يريدون أن يَقصُروا القرآن قصرا على أهوائهم ، وأن يقولوا : إنَّ القرآن لم يأتِ بتحريم الخمر ، وإنَّما قال فقط : ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ ، لا يعرفون اللغة العربية ، ولا يتذوَّقونها .

ولم يعلم هؤلاء كذلك أنَّ القرآن قد جاء بأشدِّ المُغلِّظات في التحريم ، لأنَّه قرن الخمر بالأنصاب وبالأزلام ، واعتبرها رجسا ، واعتبرها من عمل الشيطان ، وأمر باجتنابها ، ورتَّب على ذلك الفلاح ، فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وذكر بعض آثارها الدينية والاجتماعية السيئة ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (المائدة: ٩١) ، وكلها مؤكِّدات للتحريم ، وهكذا يتبيَّن أنَّ من أسباب الوقوع في الخطأ ، وأحد المزالق في الفهم والتفسير للقرآن : عدم التمكُّن من اللغة العربية .

(٢) الجهل بالسُّنَّة النبويَّة :

ومن مزالق الفَهم والتفسير للقرآن أيضا : الجهل بالسُّنَّة النبويَّة ، بعض الناس لا يعرف شيئا في السُّنَّة ، ومع ذلك يُقدِم على تفسير القرآن الكريم ، رأينا أحدهم اسمه : (حسين أحمد

أمين) يقول في قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ (المائدة:٣٨) : هذا كان خاصًّا بأيَّام نزول القرآن ؛ لأنَّ هذه الآية نزلت في سرقة الناقة ، والناقة كانت هي حياة الإنسان العربي ، وروح وجوده ، إذا سرقها كأنَّما قتله ، فهذه الآية جاءت في سرقة النُوق . هكذا قال .

ولو أنَّ هذا رجع إلى كُتب السُّنن والأحاديث ، لعلم أنَّ النُّوق في زمن النُبوَّة ما كانت تُسرق ، ففي الحديث الصحيح ، أنَّ النبي ﷺ سُئل عن ضالة الإبل ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّت وجنتاه ، ثم قال : « ما لك ولها ، معها حذاؤها وسقاؤها ، حتى يلقاها ربها »[1] . أي اتركها حتى يأتي صاحبها ومالكها ، فمعها حذاؤها أي خفها ، تستطيع أن تمشي في الصحاري ، ومعها سقاؤها في كَرِشها وسنامها ، اتركها حتى يأتي ربُّها ، فكانت الإبل في عهد النبي ﷺ ، وفي عهد أبي بكر ، وفي عهد عمر ، وفي صدر عهد عثمان رضي الله عنه متروكة ، لا يتعرَّض لها أحد ، حتى وجد عثمان رضي الله عنه أنَّ الأُمَّة حدث فيها خليط ، ودخل عليها أُناس من أُمم أخرى ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢) ، كلاهما في اللقطة ، كما رواه أحمد (١٧٠٦٠) ، وأبو داود (١٧٠٤)، والترمذي (١٣٧٢)، كلاهما في اللقطة، عن زيد بن خالد الجهني .

وبدأت الإبل تُسرق ، فأمر بوضع ضوالّ الإبل في بيت المال[1].
أمّا في عهد النُبوّة وعهد الشيخين ما كانت تُسرَق الإبل .

فهذا الذي يزعم أنَّ الآية نزلت في سرقة الإبل لم يفهم شيئا عن عصر النُبوَّة ، ولو رجع إلى هذا العصر وقرأ كتب الصحاح وكتب السُّنن ، لعرف أنَّ النُوق ما كانت تُسرق قط ، فالجهل بالسُّنة أدَّى إلى هذا الانحراف .

(٣) إهمال أسباب النزول :

كذلك من أسباب الانحراف : الغفلة عن أسباب النزول ، نحن نجد أنَّ هناك آيات لها سبب نزول مُعَيَّن ، فينبغي أن نُدرك سببها ، ولا نُهْمل سياقها ، سأل مروان بن الحكم سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ، عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (آل عمران:١٨٨).

قال : لئن كان كل أحد فرح بما آتي ، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّبا ، لنُعذَّبنّ أجمعون ، فأخبره عبد الله بن عباس ، أنَّ هذه الآية نزلت في جماعة من أهل الكتاب خاصَّة ، حيث سألهم

---

(١) رواه مالك في الأقضية (١٤٤٩) ، والبيهقي في الكبرى كتاب اللقطة (١٩١/٦) ، عن الزهري .

النبي ﷺ عن شيء فكذبوا عليه ، وخرجوا من عنده فرحين بما فعلوا ، ولم يكفهم هذا ، وإنَّما أرادوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا[1] .

وسُئل سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الحرورية ، والحرورية هم جماعة من الخوارج ، سُئل عنهم ، كفَّروا غيرهم واستحلوا دماءهم ، وقاتلهم عليٌّ والصحابة . فقال : إنَّهم عمدوا إلى آيات نزلت في المشركين ، فجعلوها في المسلمين . فكان رضي الله عنه يراهم شرار خلق الله[2] .

أمران أساسيان في أسباب النزول :

من هنا لا بد أن ننظر إلى أسباب النزول ، ونهتم بها ، مع الاهتمام بأمرين أساسيين :

الأمر الأول : أنَّ كثيرا من الأحاديث التي وردت في أسباب النزول لم تصح ، فليس كلّ ما ورد في الكتب التي أُلِّفت في أسباب النزول صحيحا ، مثل : (أسباب النزول للواحدي) ، أو : (لُباب

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٨) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٨) ، كما رواه أحمد (٢٧١٢) ، والترمذي في التفسير (٣٠١٤) .

(٢) رواه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/٣٥٥) ، وعلقه البخاري في كتاب استتابة المرتدين ، باب قتل الخوارج ، وصحح إسناده ابن حجر في تغليق التعليق (٥/٢٥٩) .

obeikandl.com

النقول في أسباب النزول للسيوطي) ، أو ما ذُكر في كتب التفسير من أسباب النزول ، فليست كلّها صحيحة ، بل أكثرها غير صحيح . فلا بد أن نتحرى وندقِّق في قبول أسباب النزول .

الأمر الثاني : أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذا هو الرأي الصحيح والمرجَّح في علم أصول الفقه ، العبرة بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب إلا ما استُثني ، كما جاء عن ابن عباس وابن عمر في الحديثين السابقين ، فلا بد أن نُراعي هذا حينما نتحدث عن أسباب النزول .

(٤) اتباع المتشابهات والإعراض عن المُحْكمات :

من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن : اتباع المُتشابهات والإعراض عن المُحْكمات ، نحن نعلم أنَّ الله أنزل الكتاب منه آيات مُحكمات ، هُنَّ أمُّ الكتاب أي أصله الذي يُرد إليه ، وأُخر مُتشابهات ، كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران:٧) ، والمفروض لكي نُحسن الفهم ، أن نرد المُتشابهات إلى المُحْكمات ؛ لأنها بيِّنة في نفسها ، يُفهم غيرها

في ضوئها . والذين يقولون : القرآن حمَّال أوجه . إنما يعنون به هذه المتشابهات ، بخلاف المحكمات ، ولو كان القرآن كلُّه حمَّال أوجه ، ما سُمِّي (كتابا مبينا) ، ولا (نورا مبينا) . ولكن المفتونين عكسوا ذلك ، جعلوا المُتشابهات هي الأصل ، وأغفلوا المُحْكمات .

والنبي ﷺ حذّر من هؤلاء ، تلا هذه الآية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وقال : « فإذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم »[1]. فهؤلاء الذين في قلوبهم مرض ، وفي سلوكهم انحراف ، يتَّبعون المُتشابهات ويدَعون المُحْكمات ، وهذا ما نراه عند كثيرين في عصرنا ، يدَعون الآيات الواضحة القاطعة الدَلالة ، ويذهبون إلى المُتشابهات .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير(٤٢٧٣)، ومسلم في العلم (٢٦٦٥)، كما رواه أحمد (٢٦١٩٧) ، وأبو داود في السنة (٤٥٩٨)، عن عائشة .

وكذلك يفعلون في السُّنن ، كما رأينا بعضهم يستدل على أنَّ الربا المُحرَّم هو ما كان أضعافا مُضاعَفة ، مستدلا بالآية الكريمة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَـٰفٗا مُّضَـٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٣٠) ، ونسي الآية المُحْكمة التي خُتمت بها آيات الربا ، بل خُتمت بها آيات القرآن كلّها ، كما جاء عن ابن عباس[١] وهي قول الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٨،٢٧٩) .

تركوا هذه الآية وأمسكوا بآية آل عمران ، بينما آية آل عمران كما يقول العلماء : هي لبيان الواقع وتفظيعه وتجسيمه . فإنَّ العرب كانوا يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، الربا المركَّب المُضاعف ، حيث كان يأتي الشخص ويقول : أعطيك هذا بعشرة في المئة لمدة شهر مثلا ، فإذا مرَّ الشهر ولم يقدر على السداد ، يقول له : أُمهلك على أن تدفع لي عشرين في المئة ، وهكذا يزيد عليه ، حتى يُصبح المبلغ المطلوب من هذه الفوائد الربويّة أكثر من المبلغ الأصلي ، يصير أضعافا مُضاعَفة ، وهذا هو الواقع .

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٥٤٤) .

فالقرآن أحيانا يذكر الواقع لبيانه وتفظيعه، كما قال: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (النور:٣٣)، فليس معنى الآية: جواز الإكراه على البِغاء إذا لم يُردن التحصُّن، وإنَّما البِغاء مُحرَّم، سواء أردن التحصُّن أم لم يُردن، إنَّما يريد الله عز وجل تشنيع وتفظيع أمر السادة، الذين كانت فتياتهم وجواريهم وإمائهم يرفضن البِغاء، وهم يُصرُّون على أن يكسبوا المال من ورائهنَّ، عن طريق الزنا، وبيع الفروج، والعياذ بالله.

كذلك آية الربا المضاعَف أرادت تفظيع هذا الواقع، وتجسيدة بصورة مُزْرية، أمَّا الآية الحاسمة في موضوع الربا، فهي آية البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٢٧٨)، ولو كان الأمر على ما يقول هؤلاء، لكان الربا المُحرَّم هو ما كان ستمائة في المئة، لأنَّ الضِّعف هو المِثل، والمِثل معناه مئة في المئة، فإذا كان المِثل أضعافا، فمعناه ثلاثة أمثال على الأقل، لأنَّ أقل الجمع في اللغة العربية ثلاثة، فإذا كانت هذه الأضعاف مضاعَفة، ولو على الأقل مرة واحدة، فيكون ثلاثة ضرب اثنين بستة، فمعناها أنَّه لا يَحرم من الربا إلا ما كان ستمائة في المئة، فهل يقول هذا عاقل؟! فالأخذ بالمتشابهات وترك المحكمات، من أسباب الزيغ والانحراف في فهم القرآن وتفسيره.

(٥) سوء التأويل :

كذلك من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن : سوء التأويل ، الذين يخرجون بالقرآن عن ظاهره لغير دليل ، الأصل حمل النصوص على ظواهرها ، إلا لدليل يُرجِّح ذلك ، فيمكن أن نخرج من هذا الأصل إلى التأويل ، كل العلماء لجأوا إلى التأويل ، المفسِّرون تحدَّثوا عن التأويل ، والمتكلِّمون تحدَّثوا عن التأويل ، والأصوليُّون تحدَّثوا عن التأويل ، ووضعوا له ضوابط، حتى لا يكون كلأً مباحا يرعاه كل مَن شاء . كيف شاء ، كما صنعت بعض الفئات في تراثنا الإسلامي المتنوِّع .

الفلاسفة أساؤوا التأويل :

هناك أناس أساؤوا التأويل من غير شك ، وهذا وجدناه عند الفلاسفة ، الذين يُسمُّونهم الفلاسفة الإسلاميين ، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا ، أوَّلوا القرآن ليتفق مع فلسفة أرسطو ، ولذلك خطَّأهم الإمام الغزالي في كتابه : (تهافت الفلاسفة) ، في سبع عشرة مسألة ، وكَفَّرهم في ثلاث مسائل ، أنَّهم لا يقولون بخلق الله للعالم ، بل يقولون بقِدَم العالم ، وأنَّ الله لا يعلم الجزئيّات ، وإنَّما يعلم الأشياء على وجه كُليّ ، ولا يقولون بالمعاد الجسماني ، بل يقولون : إن العذاب أو النعيم في الآخرة

للروح فقط دون الجسد . وأوَّلوا القرآن الكريم لكي يتَّفق مع الفلسفة الإغريقية ، وخصوصا فلسفة أرسطو الذي يسمونه : (المُعلِّم الأول) ، مع أنَّ المُعلِّم الأول للمسلمين وللعالم كلِّه هو محمد رسول الله ﷺ .

المعتزلة أساؤوا التأويل :

وكذلك وجدنا المدرسة الاعتزالية ، وجدناها أساءت التأويل لتتفق مع المسَلَّمات العقلية التي انتهوا إليها ، فأوَّلوا الآيات المتعلقة بالشفاعة ، مع أنَّ القرآن نفى الشفاعة في آيات وأثبتها في آيات ، والشفاعة المنفية غير الشفاعة المُثبتة ، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٥٥) ، ولا تكون إلا لمن ارتضى ، ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء:٢٨) ، أي لأهل التوحيد . ولكنهم أوَّلوا الآيات والأحاديث الكثيرة في شفاعة النبي ﷺ ، وشفاعة الملائكة ، وشفاعة الأنبياء والمرسلين ، وشفاعة المؤمنين والصالحين للمذنبين من الموحِّدين .

وأوَّلوا كذلك الآيات المتعلِّقة برؤية المؤمنين لربهم عز وجل في الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣)، وردُّوا ما يسندها من أحاديث صحاح ،

كحديث : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته »[1] . والتشبيه للرؤية ، وليس للمرئي من غير شكٍّ .

وبعضهم أوَّل أحاديث عذاب القبر ، والآيات التي تدلُّ عليه ، والآيات المتعلِّقة بالصراط ، وبالميزان ، وغيرها . فالمعتزلة ممَّن أساء استخدام التأويل وأسرف فيه ، وكلُّ الفرق المختلفة أوَّلت ، حتى الأشعرية أوَّلوا ، وأسرفوا أحيانا في التأويل ، كما ذكر الإمام الغزالي في كتابه : (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)[2] .

وفي عصرنا نجد الذين يؤوِّلون القرآن ويسرفون في تأويله .

المهم أنَّ التأويل أمر خطير ، وهو ما ينبغي أن نقف دونه ، ونحول دون التلاعب بكتاب الله ، والتأويل لآيات الله الواضحات . فسوء التأويل من أسباب الانزلاق في الفَهم والتفسير للقرآن .

(٦) تناقل الروايات الإسرائيلية :

كذلك من الأسباب : تناقل الروايات الإسرائيلية ، وبعضها في الحقيقة ليس له أساس في الكتب عندهم ، كثير مما يوجد في

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٩)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٣)، كما رواه أبو داود في السنة (٤٧٢٩)، وابن ماجه في الإيمان وفضائل الصحابة (١٧٧)، عن جرير ابن عبد الله .

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة صـ٨٤ .

كتب المسلمين من الإسرائيليات لا يوجد في كتب الإسرائيليين ، وإنَّما هي ممَّا تناقله الناس شفهيًّا بعضهم عن بعض ، ثم دسُّوه على المسلمين ، فقبله من قبله منهم ، ورفضه المحقِّقون . ومن هؤلاء الذين رفضوا الإسرائيليات ، الإمام ابن كثير رحمه الله . قال في تفسيره : (ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل . فلا نؤمِنُ به ولا نكذِّبه ، وتجوزُ حكايتُه لما تقدَّم . وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيٍّ . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا ، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك . كما يَذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدّتهم ، وعصا موسى من أيِّ شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم . ولكن نقلُ الخلاف

عنهم في ذلك جائز . كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (الكهف:٢٢) إلى آخر الآية)[١].

وقال في تفسير سورة الكهف ، بعد أن ذكر أقوالا في إبليس ، واسمه : (وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبُها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنْظَر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه ، لمخالفته للحقّ الذي بأيدينا . وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كلّ ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفّاظ المُتْقِنين الذين يَنْفُون عنها تحريفَ الغَالِين وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقّاد ، والحُفَّاظ الجياد ، الذين دَوَّنوا الحديث وحَرَّرُوه ، وبيَّنوا صحيحَه من حَسَنه من ضعيفه ، من منكَره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضَّاعِين والكذّابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال . كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبويّ والمقام المحمديّ ، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن يُنْسَب إليه كذبٌ أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٩/١) ، تحقيق سامي محمد سلامة ، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .

فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجَعَل جنّاتِ الفردوس مأواهم . وقد فَعَلَ)[١].

ولكنه للأسف أحيانا يذكر في الإسرائيليات أحاديث طويلة جدا ، كما فعل في سورة : [ص] ، حيث ذكر حديثا طويلا عن سليمان عليه السلام ، ثم قال : وهو غريب جدا[٢]. وإذا كان الحديث مُنكَرا أو غريبا جدًا ، فأرحنا منه ولا داعي له!!

وكثير من المفسِّرين وقع في هذا ، نجد الإمام القرطبي رحمه الله ، برغم قلَّة ما يذكر من الإسرائيليات وقع في هذا ، والمفسّرون متفاوتون في قَبول هذه الإسرائيليات.

والنبي ﷺ حذَّر من هذه الإسرائيليات ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : ﴿ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمۡ وَٰحِدٌ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦) »[٣].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٥/١٦٨) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٧/٦٩،٧٠) .

(٣) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٦٢)، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١١٣٨٧) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (٢١١٢٦) .

وروى الإمام البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حذّر من الإسرائيليات، ورفض سؤال أهل الكتاب في هذه القضايا، وقال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يُشَب؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا! أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم[1].

وللأسف هناك إسرائيليات كثيرة وخصوصا في القصص القرآني، كما نجد في قصة داود عليه السلام، وكما نجد في قصة يوسف عليه السلام، الكلام الذي يُذكر في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف:٢٤)، رغم أنَّ القرآن واضح في أنَّ يوسف عليه السلام كان ناصع الصفحة، فقد قال حينما راودته المرأة عن نفسه: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٢٣)، والله تعالى قال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف:٢٤)، والعباد

---

(١) رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٥).

المخلَصون ليس للشيطان عليهم سلطان ، كما قال الله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ (الحجر:٤٢) ، بل إن إبليس نفسه قال لله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢،٨٣) ، وهذا يدلُّ على أنَّ الشيطان ليس له على يوسف سلطان ولا سبيل .

وقد أعادتْ امرأة العزيز الكَرَّة أمام النِسوة اللاتي صنعتْ لهنَّ الوليمة : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣١،٣٢) ، فطلب العصمة لنفسه ، فليس ثمَّت إذن أيُّ ضعف في موقف يوسف عليه السلام .

ولمَّا فشل معها سلاح الإغراء ، ولم ينفع معه أن هيَّأتْ الأسباب ، وغلَّقتْ الأبواب ، وقالت له : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ . لجأتْ إلى سلاح آخر ، إنَّه سلاح التهديد ، هدَّدتْ بالسجن والصَّغار والعذاب ، فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾(يوسف:٣٢)،

ورغم ذلك يأتي من ينسب ليوسف عليه السلام ميلا ، رغم نفي القرآن ذلك بأوضح عبارة .

من أجل هذا نقول : إنَّ الإسرائيليات دخلت على التفسير فكدَّرتْ صفاءه ، فينبغي أن نُنزِّه تفسيرنا للقرآن ـ وخصوصا في عصرنا هذا ـ عن هذه التُرَّهات الإسرائيلية .

(٧) قبول الروايات الواهية عن مُفسِّري السلف :

كذلك من أسباب الانزلاق في الفهم والتفسير للقرآن قبول الروايات الواهية التي ترد عن مُفسِّري السلف ، كالتي ترد عن ابن عباس ، أو ابن مسعود ، أو مجاهد ، أو قتادة ، أو عكرمة ، أو الضَّحاك ، أو عن غيرهم من مُفسِّري السلف ، ينبغي أن نضع هذه الروايات على مشرحة الجرح والتعديل ، من ناحية سندها وثبوتها ، ومن حيث معناها ومضمونها .

معروف أنَّ ابن عباس روى عنه الكثيرون ، وليست كل الروايات في مستوى واحد . (فمن جيد الطرق عن ابن عباس طريق : قيس ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عنه . وهي على شرط الشيخين ، وكثيرا ما يخرج منها الفرياني والحاكم في مستدركه .

ومن ذلك طريق : ابن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة أوسعيد بن جبير ، عنه . هكذا بالترديد ، وهي طريق جيدة وإسنادها حسن . وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا . وفي معجم الطبراني الكبير منها أشياء .

وأوهى طرقه : طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس .

فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي التي سمَّوها : سلسلة الكذب . وكثيرا ما يخرج منها الثعالبي والواحدي .

وطريق الضحاك بن مزاحم ، عن ابن عباس . منقطعة ، فإن الضحاك لم يلقه .

فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عنه . فضعيفة لضعف بشر . وقد أخرج من هذه النسخة كثيرا ابن جرير وابن أبي حاتم .

وإن كان من رواية جويبر ، عن الضحاك ، فأشد ضعفا ، لأن جويبرا شديد الضعف متروك ، ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبي

obeikandi.com

حاتم من هذا الطريق شيئا ، إنما خرجها ابن مردويه ، وأبو الشيخ ابن حبان .

وطريق العوفي ، عن ابن عباس . أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا ، والعوفي ضعيف ليس بواه ، وربما حسن له الترمذي)[1] .

فلا ينبغي أن نقبل هذه الروايات على عِلاَّتها ، وإنما ينبغي أن ننقدها ، وأن نُسلِّط عليها أضواء الجرح والتعديل ، ونعرف قدرها .

وكما ينبغي البحث في أسانيد الروايات ، ينبغي البحث في متونها ومضامينها ، وهل هي مقبولة المعنى ، أو لا ؟ وهو ما نتحدَّث عنه فيما يلي .

(٨) الأخذ بأقوال المُفسِّرين الضعيفة :

كذلك من أسباب الانزلاق في التفسير : الأخذ بالأقوال الضعيفة الواردة عن المُفسِّرين ، فليس كلُّ ما ورد عن المفسِّرين يكون صحيحا في معناه ، فالمفسُّرون بشر ، ولهم أوهام البشر ، وأخطاء البشر ، وقصور البشر ، وليس هناك معصوم إلا

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤٩٨/٢) ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة .

محمد ﷺ ، حتى ابن عباس رضي الله عنهما ، الذي دعا له النبي ﷺ وقال : اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل[١] .

وقال عنه المُفسّرون : هو ترجمان القرآن ، وحَبر الأمة ، رغم كلٍّ هذا فإنَّ له آراء أعرضتْ عنها الأُمَّة ، مثل آرائه في تفسير آيات المواريث ، مثل مخالفته الصحابة في العول ، والكلالة .

هناك آراء في التفسير واهية ، وقع فيها كبار المفسرين ، كشيخ المفسرين ، الإمام محمد بن جرير الطبري ، الذي كان إماما في التفسير ، وإماما في الفقه ، وإماما في الحديث ، وإماما في التاريخ ، وإماما في القراءات ، وإماما في اللغة العربية ، مجموعة أئمة في رجل واحد ، ومع هذا له أشياء لا تصلح .

نماذج من الأقوال الضعيفة :

مثل تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ **وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ** ﴾ (النساء:٣٤) ، فقال : (أولى الأقوال بالصواب في ذلك : أن يكون قوله : ﴿ **وَٱهۡجُرُوهُنَّ** ﴾ ، موجَّهًا معناه إلى معنى الرَّبط بالهِجار ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الوضوء (١٤٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧)، كما رواه أحمد (٢٣٩٧)، وابن حبان في إخبار النبي عن مناقب الصحابة (٧٠٥٥)، والحاكم في معرفة الصحابة (٦٢٨٠) .

على ما ذكرنا من قيل العرب للبعير إذا ربطه صاحبه بحبل على ما وصفنا : (هَجَره فهو يهجره هجْرًا) .

وإذا كان ذلك معناه ، كان تأويل الكلام : واللاتي تخافون نشوزَهنَّ فعظوهنَّ في نشوزهن عليكم ، فإن اتَّعظنَّ فلا سبيل لكم عليهنَّ ، وإن أبين الأوْبة من نشوزهنَّ فاستوثقوا منهنَّ رباطًا في مضاجعهن ، يعني : في منازلهنَّ وبُيوتهن التي يضطجعن فيها ، ويُضاجعن فيها أزواجهنّ)[1]. يعني إذا خاف الإنسان من نشوز امرأته يُقيِّدها ويربطها بحبل ، أبهيمة هي؟! كلما غضبتَ من زوجتك ربطتَّها بحبل! وهذا ـ كما قال الزمخشري ـ من تفسير الثقلاء[2].

وهناك مَن قال من المفسرين : بأنَّ قول الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤) ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (المائدة:٤٥) ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(١) تفسير الطبري (٣٠٩/٨) ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .

(٢) الكشاف للزمخشري (٥٣٩/١) ، تحقيق عبد الرازق المهدي ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

﴿ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة:٤٧)، نزلت في أهل الكتاب[1]. الآيات الثلاث في أهل الكتاب وليست في المسلمين، هذا ما ذكره هؤلاء المفسرون، كما جاء عن ابن عباس قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤)، إلى قوله ﴿ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة:٤٧)، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود خاصة في قريظة والنضير[2].

سبحان الله، يعني أهل الكتاب إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم من التوراة والإنجيل، فهم كافرون أو ظالمون أو فاسقون، والمسلمون إذا تركوا ما أنزل الله عليهم من القرآن فليسوا بكافرين ولا ظالمين ولا فاسقين، هل معنى هذا أنَّ ما أنزل الله على

---

(١) وهذا ما روي عن البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله وغيرهم كما ذكره ابن كثير في تفسيره (١١٩/٣)، وقال ابن جرير في تفسيره (٣٥٨/١٠) بعد أن ذكر الآراء في هذه الآية: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول مَن قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت، وهم المعنيُّون بها، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم، فكونها خبرا عنهم أولى!!!

(٢) رواه أحمد (٢٢١٢) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٥٣)، حسن صحيح الإسناد.

المسلمين دون ما أنزل الله على من قبلهم؟! هل القرآن أقلُّ منزلة من التوراة والإنجيل؟! بحيث إنَّ مَن ترك التوراة والإنجيل ولم يحكم بهما يُحكَم عليه بالكفر والظلم والفسوق، ومَن ترك القرآن عامدا ولم يحكم به لا يُحكَم عليه بشيء من ذلك؟!

وهذا لا يجوز، هل الله تعالى يكيل بكيلين، أو يزن بميزانين، بحيث إنَّ أهل الكتاب إذا أعرضوا عمَّا أَنزل الله عليهم حَكَم عليهم بالكفر أو الظلم أو الفسق، وإذا أعرض المسلمون عن ما أنزل عليهم فلا يوصفون بشيء من ذلك؟!

هذا ليس معقولا في ميزان عدل الله، وهذا القول ظهر للأسف منذ عصر الصحابة، ولذلك سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حين قيل له: إنَّ هذا في أهل الكتاب، قال: نِعْم الإخوة لكم بنوا إسرائيل، أنْ كان لكم كلُّ حُلوة، ولهم كلَّ مُرَّة[1]. هم يستحقُّون الكفر والظلم والفسق، وأنتم ليس عليكم شيء، هذا ما أنكره الصحابة، فينبغي إذا أردنا أن نقرأ كتب التفسير، أن نقرأها بعقلية الواعي الناقد، فليس كل ما ورد في التفسير صحيحا، فيه الصحيح وفيه الضعيف.

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢/٣١٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والطبري في تفسيره (١٠/٣٤٨).

إنَّ قول الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة:٤٧) ، هذا يشمل أهل الكتاب ، ويشمل المسلمين ، لأنَّ الصيغة جاءت بلفظ من ألفاظ العموم ، وهو لفظ ﴿ مَن ﴾ ، والعبرة بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب . قد يكون السبب خاصًّا ، ولكن اللفظ عام ، إذا قلتَ : المدرسة الفلانية ساءت إدارتها فساءت نتيجتها ، ومَن ساءت إدارته ساءت نتيجته . كان هناك قضيتان ، قضية خاصة وهي : (المدرسة الفلانية ساءت إدارتها فساءت نتيجتها). وقضية عامة ، وهي التعليق الأخير بقولك :(ومَن ساءت إدارته ساءت نتيجته). وهذا ما ذكره القرآن ، ذكر التوراة وأحكامها ، كقضية خاصَّة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، ثم قال حكم حُكما عاما ، فقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤) ، وذكر كذلك الإنجيل : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

(المائدة:٤٧) .

فهذا ما ينبغي أن نفهمه . ولهذا ينبغي أن نحذر من هذه المزالق .

معالم وضوابط لفهم القرآن الكريم :

كذلك ينبغي أن نضع أمام أعيننا معالم وضوابط لفهم القرآن الكريم ، وأول هذه المعالم :

(١) القرآن كلام الله :

أن ننظر إلى هذا القرآن على أنَّه كتاب الله تعالى وكلامه ، منذ فترة ظهرت في مصر ، قضية أستاذ جامعي ، اسمه نصر حامد أبو زيد ، ألَّف كتبا وأراد أن يرتقي بها إلى درجة أستاذ بالجامعة ، فاللجنة المحكمة قالت : هذه كتب لا يصلح أن يرقى بها ، بل هي كفر ، والعياذ بالله . ولكن للأسف تألَّفت لجنة أخرى ، ووافقت على ترقِّي هذا الرجل ، فقام بعض الإخوة ، ومنهم بعض أساتذة في الأزهر ودار العلوم، برفع دعوى على هذا الرجل في المحكمة ، يطالبون فيها بالتفرقة بينه وبين زوجته ، لأنَّه ارتد عن الإسلام ، والقانون المصري لا يعاقب المرتد عن الإسلام ، ولكن قانون الأحوال الشخصية ـ لكونه مستمدا من الشريعة الإسلامية ـ يفرق بين المرتد وزوجته ، فالمحكمة الابتدائية قالت : لسنا مختصين بهذا . ولكن محكمة الاستئناف حكمت بالتفريق بين هذا الرجل

وبين زوجته ، ثم رفع الأمر إلى محكمة النقض الأعلى فأقرَّت هذا الحكم وأكدته .

هذا الرجل يقول : (إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج لإثبات ومع ذلك فإن هذه القضية تحتاج في ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة لكن القول بأن النص منتج ثقافي يمثل بالنسبة للقرآن مرحلة التكوين والاكتمال وهي مرحلة صار النص بعدها منتجا للثقافة بمعنى أن صار هو النص المهيمن المسيطر الذي تقاس عليه النصوص الأخرى وتتحدد به مشروعيتها . إن الفارق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها وبين إمداده للثقافة وتعبيره لها)[1].

فهو في نظره مُنْتَج ثقافي ، نعامله كما نعامل كل المُنْتَجات الثقافية ، لا ننظر إليه على أنَّه شيء سماوي أو شيء مُقدَّس ، ونسي أنَّ هذا القرآن كلام الله ، بنصِّ القرآن نفسِه .

يقول الله تعالى : ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ** ﴾ (البقرة:٧٥)، ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ **وَإِنْ**

---

(١) مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد صـ٢٣ ، ٢٤ .

أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٦)، فالقرآن الكريم كلام الله ، ولا بدَّ أن ننظر إليه على هذا الأساس ، وينبغي أن نفهمه ونُفسِّره دون أن تكون عندنا خلْفيَّة نفرضها عليه .

مشكلة الفلاسفة أنَّهم قرأوا القرآن وعقولهم محشوَّة بفلسفة أرسطو ، فأرادوا أن يجبروا القرآن جبرًا ، ويقهروه قهرًا على أن يتَّبع فلسفة أرسطو ، والقرآن متبوع لا تابع ، وحاكم لا محكوم ، وقائد لا مقود ، فلا ينبغي لإنسان أن يقرأ القرآن ويريد أن يفرض ثقافة أخرى عليه ، فهذه مشكلة الفلاسفة كما قلنا مع القرآن .

وكذلك المعتزلة مشكلتهم أنَّ عندهم مُسلَّمات ، وقرأوا القرآن وفي ذهنهم هذه المُسلَّمات ، والواجب أن تقرأ القرآن وتُخضِع له نفسك ورأسك ، فما يأتي به القرآن من أخبار تقول أمامه : آمنا به وصدَّقنا ، وما يأتي فيه من أحكام تقول : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ . كما امتدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة:٢٨٥) ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور:٥١)، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٣٦).

فشأن القرآن الكريم أن نقرأه على أنَّه كتاب الله ، بعض المفسرين قرأوا قصة داود في القرآن بعد أن قرؤوها في التوراة ، فأرادوا أن يحملوا ما في القرآن على ما في التوراة ، لا ينبغي هذا. المسلم يقرأ القرآن وهو يريد أن يقتبس منه ، وأن يتعلَّم منه ، فيُفْرِغ ذهنه لهذا القرآن العظيم ، وهذا هو الذي ينبغي أن نفعله نحو كلام الله .

(٢) القرآن كتاب الزمن كلّه :

كذلك ينبغي أن أقرأ القرآن على أنَّه كتاب الزمن كلِّه ، ليس كتاب زمن من الأزمنة ، فلم يجئ القرآن لعصر دون عصر ، أو لزمن دون زمن ، فلم يجئ القرآن الكريم لعصر النبوة فقط ، أو لعصر الصحابة فقط ، أو للقرون الأولى فقط ، ولكنه جاء للزمن كلِّه ، لأنَّه الكتاب الخالد ، الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت:٤٢) ، وهو كتاب الخلود ، لأنَّه

ليس بعد الإسلام دين ، ولا بعد محمد ﷺ رسول ، ولا بعد القرآن كتاب ، فيجب أن نقرأه على أنَّه كتاب الزمن كلّه ، وليس لزمن دون زمن .

(٣) القرآن كتاب العالم كلّه :

ويجب أن نقرأ القرآن الكريم على أنَّه كتاب العالم كلّه ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)، صحيح هو نزل بلسان العرب ، ويجب أن يُفهم بلسان العرب ، ولكنّه نزل للعالم ، للعرب والعجم ، للأبيض والأسود ، بل للجن والإنس ، فعالميَّة القرآن لا شكَّ فيها ، وهذا ما نلمسه من أول آية في كتاب الله بعد البسملة ، نقرأ قول الله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢)، وآخر سورة في القرآن ، تؤكِّد على عالميَّة القرآن : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس:١-٣)، هذه العالمية يجب أن نفهم في ضوءها القرآن الكريم .

(٤) القرآن كتاب الإنسان كلّه والحياة كلَّها :

كذلك يجب أن نفهم القرآن الكريم على أنه كتاب الإنسان كله ،

يعني لم يجئ ليخاطب العقل فقط ، أو يخاطب القلب فقط ، إنه يُخاطب العقل والقلب معا ، يخاطب الكيان الإنسان كله ، الإنسان بعقله وعاطفته ووجدانه وروحه وجسده، جاء للإنسان كل الإنسان.

كذلك هو كتاب الحياة كلها ، جاء القرآن للحياة كلها ، لم يجئ لناحية دون ناحية ، وإنما جاء يعالج أمور الحياة ، يضع فيها أصول الهداية ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩)، وأنا أرى الاستدلال بهذه الآية أفضل من الاستدلال بآية الأنعام : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨) ، لأنَّ الكتاب في آية الأنعام يحتمل أن يكون المراد به القرآن ، ويحتمل أن يكون المراد به اللوح المحفوظ ، وينبغي للعالم أن يستدلَّ بالمُحكم لا بالمُتشابه ، وبالصريح لا بالمُؤوَّل قدر الإمكان .

والله تعالى يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١) ، فهذا القرآن فيه تفصيل كلِّ شيء .

حكاية عن الشيخ محمد عبده :

يحكون عن الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله ، أنَّ بعض الأجانب سأله وقال له : أنتم تقولون : إن القرآن فيه كلُّ شيء .
فقال له الشيخ : نعم .

فقال السائل : أريد أن أسألك عن أمر وأريد الجواب من القرآن . قال له الشيخ : سل .

فقال السائل : كم رغيف خبز في الأردب الواحد من القمح؟ فقال له الشيخ : انتظرني حتى أسأل لك صاحب المخبز . وصاحب المخبز رجل أجنبي أيضا ، فسأل الشيخ صاحب المخبز ، فأخبره ، فأخبر الشيخ السائل بما قاله صاحب المخبز .

فقال السائل للشيخ : لكن هذا ليس من القرآن . فقال له الشيخ : بل هو من القرآن ، لأنَّ القرآن يقول : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء:٧) ، ويقول : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٩) ، ويقول : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤).

فليس معنى أن القرآن فيه كل شيء أن يأتي بالتفصيلات ، لا ، ولكنَّه يضع قواعد ومنارات هادية ، فهذا هو الذي ينبغي أن نفهم القرآن في ضوئه .

القرآن كتاب الحياة كلُّها ، وكتاب الإنسان كلِّه ، وكتاب العالم كلِّه ، وكتاب الزمن كلِّه .

ليس في القرآن ما في الإنجيل ، الذي يقول : أعطِ ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . فقبِل ازدواج الحياة ، وثُنائية الحياة ، وثُنائية الإنسان ، أنْ نقسم الحياة والإنسان قسمين : قسما لله وقسما لغير الله ، أو قسم لقيصر وقسم لله ، أو قسم للدين وقسم للدولة ، الإسلام يرفض هذا التقسيم وهذه الثُنائية ، ويجعل قيصر وما لقيصر كليهما لله ربِّ العالمين ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣). هذا هو القرآن ، ينبغي أن نفهم القرآن في هذا الإطار وتلك الحدود .

(٥) تفسير القرآن بالقرآن :

ينبغي أول ما ينبغي أن نفسِّر القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في موضع فُصِّل في موضع آخر ، وما أُبهم في ناحية بُيِّن في ناحية أخرى ، فلا بدَّ أن ننظر إلى القرآن ككلٍّ لا يتجزَّأ .

حينما نقرأ في الفاتحة قول الله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، نجده لم يبن لنا المراد بالعالمين ، ومن هم؟

ولكن نجد في سورة الشعراء ، بيان المراد بالعالمين ، في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(الشعراء:٢٣،٢٤)، فعرَفنا أن : ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تشمل السماوات والأرض وما بين السماوات والأرض .

ولم يُبيِّن معنى الربوبية ، لكن جاء في سورة الأعلى بيان معنى الربوبية ، فقال تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ (الأعلى:١-٥) ، فبيَّن أن الربوبية تعني الخلق فالتسوية ، والتقدير فالهداية .

ولم يبيِّن في الفاتحة المراد بيوم الدين ، في قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، فجاء في سورة الانفطار : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:١٧-١٩).

حتى قراءة : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، بيَّنها في سورة غافر ، في قوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(غافر:١٦).

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة:٦،٧) ، لم يبيِّن مَن هم المُنعَم عليهم ، لكن جاء البيان في سورة النساء ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩).

وهكذا ينبغي أن نفسر القرآن بالقرآن ، وأن نربط النصوص القرآنية بعضَها ببعض ، ولا يجوز أن نُجزِّئ هذه النصوص ، ولا أن نفصل بعضها عن بعض .

خرج النبي ﷺ وأناس عند حجرته يتجادلون بالقرآن ، فخرج من البيت وقد غضب غضبا شديدا كأنما يُفقأ في وجهه حَبُّ الرمَّان ، فقال : « بهذا أُمرتم؟! أو لهذا خُلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض؟! بهذا هلكت الأمم قبلكم »[1]. لا ينبغي أن يُضرب كتاب الله بعضه ببعض ، وإنَّما القرآن يؤيِّد بعضه بعضا ، ويصدِّق بعضه بعضا ، وصدق الله : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) ، وهكذا يجب أن نربط النصوص القرآنية بعضها ببعض .

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٨٥) ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٩) ، عن عبد الله بن عمرو .

obeikandl.com

زعموا أنَّ القرآن لم يُحرِّم الخمر :

العِلمانيّون المُحْدَثون ، يأخذون نصًّا ويقطعونه عن سباقه وسياقه ، ويريدون أن يستدلُّوا به ، من هؤلاء واحد في مصر اسمه : (سعيد العشماوي) ، له كتب يزعم فيها أنَّه يفقه في الإسلام أكثر من الفقهاء أنفسهم ، وهو رجل مدني قانوني وضعي ، هذا الرجل يقول : (إن الخمر في القرآن مأمور باجتنابها ، وليست محرمة ، فالمحرم من الأطعمة والأشربة ورد على سبيل القطع في القرآن بالآية الكريمة : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٤٥))[١] .

ونسي هذا أنَّ هذه الآية في المطعومات ، وليست في المشروبات ، ولو أنَّه أخذ قوله تعالى في تعليل تحريم الخنزير : ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ (الأنعام:١٤٥) ، لو أخذ هذه العِلَّة المنصوصة وطبَّقها على الخمر ، فإنَّ الله تعالى قال في الخمر : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (المائدة:٩٠) ، لم يقل ﴿ رِجْسٌ ﴾ فقط ، وإنَّما قال : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ، فكان هذا التعليل كافيا لو أنَّه ربط القرآن بعضه ببعض . مشكلة هؤلاء أنهم يأخذون نصًّا

---

(١) معالم الإسلام صـ١٢١ ، وانظر : أصول الشريعة صـ٧١ ، ١٢٣ ، والإسلام السياسي صـ٥١ ، ٥٧ ، وجوهر الإسلام صـ١٦٢ .

ويقطعونه عن سباقه وسياقه ، وعن سائر نصوص القرآن ، ويريدون أن يستدلّوا به .

وزعموا أنَّ القرآن منع تعدُّد الزوجات :

ومثل أولئك ، الذين قالوا : إنَّ القرآن منع تعدُّد الزوجات لأنَّ الله قال : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ (النساء:٣)، فاشترط العدل في الزواج بأكثر من واحدة ، ثمَّ قال في نفس السورة : ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩)، فنفى استطاعة العدل ، ومعنى هذا : أنَّ آية حلَّلت وآية حرَّمت ، وهؤلاء كأنَّما يصفون الله بالعبث ، أو التناقض ، ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ (الإسراء:٤٣).

هل يُعقَل أنَّ القرآن يُبيح شيئا ويُحرمه في نفس الوقت ؟ ! ما معنى إذن قول الله : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء:٣)؟ إذن هذه الآية لا معنى لها ، ولا مضمون لها ، ولا يمكن أن يكون لها واقع . ولكن أساء هؤلاء الفَهم ، حينما أخذوا بعض الآيات ونسوا البعض الآخر ، إنَّ مفهوم قول الله تعالى : ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ ﴾ (النساء:١٢٩) : أنَّ بعض

الميل مُغتفَر ، فالمنهي عنه هو كلُّ الميل لا بعضه ، فيمكن أن تميلوا بعض الميل ، فالعدل المنفي استطاعته في الآية هو العدل الكامل : العدل في الظاهر والعدل في الباطن ، العدل في النفقة والمبيت والعدل في العاطفة والميل القلبي ، والميل الجنسي ، أن يحبَّ فلانة هذه كما يحبُّ الأخرى ، يحبُّ هذه خمسين بالمئة ، ويحبُّ هذه خمسين بالمئة ، مَن يملكِ هذا ؟ لا يملك هذا أحد ، والنبي ﷺ نفسُه لم يملك هذا .

كان النبي ﷺ يَقسِم بين نسائه في الأمور الظاهرة ، فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »[1]. فالذي لا يملكه هو أمر القلب ، كونه يحب عائشة أكثر من غيرها ، فهو لا يملك هذا ، كما قال ﷺ : « القلوب بين أُصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء »[2].

---

(١) رواه أحمد (٢٥١١١) وقال مخرجوه : هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة ـ وعبد الله بن يزيد ـ وهو رضيع عائشة ـ فمن رجال مسلم، وأخرج البخاري لحماد تعليقاً، وقد أخطأ حماد ابن سلمة في وصله، والصواب أنه مرسل، وأبو داود في النكاح (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٣)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧١)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٤٢٧)، وحسن الطرف الأول منه .

(٢) رواه أحمد (٦٥٦٩)، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه النسائي في السنن الكبرى في الاستعاذة (٧٨٦١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٨٩)، عن عبد الله بن عمرو .

obeikandi.com

لهذا قال عليه الصلاة والسلام : « فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » . يعني أمر القلب .

فإذن معنى قول الله : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء:١٢٩) ، أي لن تستطيعوا أن تعدلوا العدل الكامل ، الذي يشمل فيما يشمل الميل والمحبة العاطفية ، ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩) ، فلا يجوز لكم أن تظلموا واحدة لحساب أخرى ، بحيث تميلوا كل الميل ، فتصبح المرأة مُعَلَّقة ، لا هي مُزوَّجة ولا هي مُطلَّقة .

وهكذا ينبغي أن يُفهم القرآن الكريم ، أيْ أن نُفسِّر القرآن بالقرآن .

وهذا ما فهمه الرسول الكريم ، وأصحابه ، وتابعوهم بإحسان ، وهؤلاء هم الذين يُقتدَى بهم فيُهتدَى ، وكذلك سائر أجيال الأمة كلِّهم ، فعدَّدوا الزوجات كما شرع الله لهم ، ولم يحرِّمها أحد منهم ، ولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة .

(٦) تفسير القرآن بصحيح السنة :

ثم ننتقل إلى ما صحَّ عن النبي ﷺ ، فنفسِّر القرآن بما صحَّ عنه من السنة ، وهنا يجب أن نعلم أنَّ الأحاديث التي وردت في تفسير القرآن محدودة جدًّا ، وقد روي عن الإمام أحمد أنَّه قال : ثلاثة

كتب ليس فيها أصول : المغازي ، والملاحم ، والتفسير[1]. أي أنَّ مُعظم ما ورد في تفسير القرآن ليس بأسانيد صحاح متَّصلة ، وقد ختم الإمام السيوطي كتابه الإتقان في علوم القرآن بما ورد عن النبي ﷺ ، من الأحاديث المصرَّح برفعها إليه ، وقال عقبها : (فهذا ما حضرني من التفاسير المرفوعة المصرَّح برفعها صحيحها وحسنها وضعيفها ، ومرسلها ومعضلها ، ولم أعوِّل على الموضوعات والأباطيل)[2]، فكان في بضع وأربعين صفحة .

وقد يكون الحديث ليس نصًّا في التفسير ، وإنَّما بيان للقرآن بأيِّ وجه من أوجه البيان ، كتخصيص عام ، أو تقييد مطلق ، أو تفصيل مجمل ، أو تبيين مبهم ، أو غير ذلك . وهذه كلُّها من التفسير ، قال القرآن : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة:٤٣)، لكن جاءت السنة وبيَّنت الصلاة بأوقاتها وشروطها وكيفيَّاتها ، وكذلك الزكاة والصيام والحج ، وهذا كلُّه من البيان النبوي للقرآن .

(٧) أقوال الصحابة :

ثمَّ بعد ذلك نأخذ بأقوال الصحابة ، إذا أجمعوا على رأي ينبغي أن نحترمه،لأنَّهم لا بدَّ أن يكونوا قد سمعوه من النبي ﷺ،

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (١/١١٩) .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/٢٥٧) .

أو فهموه من مُجمل السنة ، أو السيرة . وإذا اختلفوا أتاحوا لنا أن نجتهد كما اجتهدوا ، وبذلك نجمع بين الرواية والدراية في التفسير ، كما فعل شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري ، فهو مُفسِّر بالدراية وبالرواية ، يذكر الروايات والأقوال ثم يقول : وأولى الأقوال بالصواب كذا وكذا . ويختار رأيًا من الآراء التي رواها ، أو يذكر رأيًا من عنده . وكذلك تفسير ابن كثير ، فهو ليس مجرَّد راوٍ ، وإنَّما هو مفسِّر بالمأثور والرأي معا ، فله رأي واختيارات وترجيحات .

أمَّا التفسير بالمأثور ، مثل : تفسير ابن أبي حاتم ، وابن مردويه أو غير هؤلاء ، من الذين ذكرهم السيوطي في كتابه : (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) ، وهذا تفسير بالمأثور ؛ لأنَّ السيوطي لا يذكر له فيه رأيًا خاصًّا ، إنَّما يروي الروايات عن أصحابها ، ولا يرجِّح ولا يضعِّف .

(٨) التفسير بمقتضى اللغة وفي ضوء السياق :

ويبقى بعد ذلك كلِّه : التفسير بالرأي ، أي : بمقتضى دلالة اللغة الحقيقية أو المجازية ، وبدلالة السياق ، وما ورد من النهي عن التفسير بالرأي ، فالمراد من الرأي هنا : الهوى بدون الرجوع إلى القواعد والضوابط ، فهذا هو الرأي المذموم . أما مجرَّد استخدام العقل في فَهم القرآن ، فليس مذموما ، وإلا ما أمرنا

بالتدبُّر ، في كتابه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النساء:٨٢) و (محمد:٢٤) ، وقال : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (ص:٢٩) ، ولقد اختلف الصحابة بعضهم مع بعض ، في تفسير بعض الآيات ، ما يدلُّ على أنهم تدبَّروا بعقولهم فاختلفوا . وعامَّة المفسِّرين فسَّروا القرآن بالرأي ، ولا حرج في ذلك إذا راعينا ما ذكرناه هنا ، من أصول ومعالم تهدي إلى سواء السبيل .

هذه ـ أيها الإخوة ـ معالم وضوابط ذكرتُها بإجمال ؛ لأنَّ الموضوع أوسع من أن تتَّسع له محاضرة واحدة ، وقد وفَّقني الله تعالى لتأليف كتاب من حوالي خمسمائة صفحة تحت عنوان : (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) ، كيف نتعامل معه حفظًا ، كيف نتعامل معه تلاوةً ، كيف نتعامل معه تفسيراً وفَهمًا ، كيف نتعامل معه اتِّباعًا وعملاً ، كيف نتعامل معه دعوة وتربية؟ فأرجو الله أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وناشره وقارئه . أكتفي بهذا القدر ـ أيها الإخوة ـ وأستغفر الله تعالى لي ولكم وللمسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
من خصائصِ القرآن	٥
(١) كتاب مُبِين	٦
(٢) كتاب مُيسَّر	٧
(٣) كتاب معجِز	٨
(٣) كتاب خالد	١٠
مزالق في فهمِ القرآن وتفسيره	١١
(١) عدم التمكّن من اللغة العربية	١٢
تتبُّع موارد الكلمة في القرآن	١٧
(٢) الجهل بالسُّنَّة النبويَّة	١٨
(٣) إهمال أسباب النزول	٢٠
أمران أساسيان في أسباب النزول	٢١
(٤) اتباع المتشابهات والإعراض عن المُحْكمات	٢٢
(٥) سوء التأويل	٢٦
الفلاسفة أساؤوا التأويل	٢٦
المعتزلة أساؤوا التأويل	٢٧
(٦) تناقل الروايات الإسرائيلية	٢٨
(٧) قبول الروايات الواهية عن مُفسِّري السلف	٣٤

obeikandl.com

(٨) الأخذ بأقوال الـمُفسِّرين الضعيفة........................ ٣٦
نماذج من الأقوال الضعيفة........................ ٣٧
معالم وضوابط لفهم القرآن الكريم........................ ٤٢
(١) القرآن كلام الله........................ ٤٢
(٢) القرآن كتاب الزمن كلّه........................ ٤٥
(٣) القرآن كتاب العالم كلّه........................ ٤٦
(٤) القرآن كتاب الإنسان كلِّه والحياة كلَّها........................ ٤٦
حكاية عن الشيخ محمد عبده........................ ٤٨
(٥) تفسير القرآن بالقرآن........................ ٤٩
زعموا أنَّ القرآن لم يُحرِّم الخمر........................ ٥٢
وزعموا أنَّ القرآن منع تعدُّد الزوجات........................ ٥٣
(٦) تفسير القرآن بصحيح السنة........................ ٥٥
(٧) أقوال الصحابة........................ ٥٧
(٨) التفسير بمقتضى اللغة وفي ضوء السياق........................ ٥٧
الفهرس........................ ٥٩